

الإقطاع العسكري في العهد الأيوبي

أمين أبو رمة

مرشح للماجستير

المقدمة :

من المعلوم أن العرب خرجوا للفتوح تحت راية الاسلام . فأحدثت هذه تبدلات كبيرة في حياتهم ، وتمثلت هذه التبدلات في كافة النواحي وبخاصة الاقتصادية منها ، وقد أدرك العرب المسلمون أهمية الارض فاتجهوا الى الملكية الزراعية واستحوذوا الارض الموات . كذلك كانت الفتوح عاملا هاما في القضاء على الاقطاع القديم في البلاد المفتوحة ، في بلاد الشام وغيرها .

واعتبرت الارض التي كانت تحت الحكم البيزنطي ملكا للامة تعود لبيت المال . يتصرف بها الخليفة حسب تقديره وعولمت ، عموما ، معاملة الاراضي الخراجية . الا ما اقتطع بالتمليك للعرب فتدفع العشر . ويبدو أن الملكيات الزراعية الكبيرة كثرت لدى المسلمين في أواخر أيام الامويين وصارت أقرب الى نوع من الاقطاع الزراعي . وتحددت الارض في زمن العباسيين بثلاثة أصناف : الصنف الاول : أرض الصوافي وتعود ملكيتها لبيت المال وللخليفة أن يتصرف بها عن طريق الهبة أو الاقطاع أو الاستغلال . والصنف الثاني : أراضي الخراج أو جل أراضي البلاد المفتوحة وتزرع مقابل دفع الخراج عنها ، أما الصنف الثالث من الارض فهي الموات التي تستصلح ، وقد اعتبرت عشيرة ، أي انها ملك خالص لمن يستصلحها . وكانت هذه هي البذور الاولى للاقطاع الذي تطور مع الزمن . وبتسلط الاعاجم على الدولة والخلافة وفقدان الخليفة لهيبته ، توسع الأمر في اقطاع الاراضي فنشأ نوع جديد من الاقطاع له وجهان ، مدني وعسكري .

فالإقطاع الذي هو أن يقطع السلطان أرضا لشخص ما فتصير رقبته له (١) أي تصبح ملكا لصاحب الاقطاع . أو بتعبير آخر هو تقسيم الاراضي الزراعية أقساما أو أقطاعات يختص السلطان نفسه بنسبة منها ويمنح البقية لامرائه ، والمقطع يستقل أقطاعه لفائدته (٢) . وكان لهذا الاقطاع في الدولة الاسلامية معنيان ، الاول منح الاراضي

التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور (٣) . والثاني : منح غلة الارض مقابل اعطاء شيء أو ضمانه لبيت المال ، وعليه فالاقطاع قد يكون اقطاع اقليم بكامله . نظير ضريبة تدفع ، أو اقطاع جزء من الارض مقابل العشر أو الخراج ، أو توزيع دخل قطعة من الارض كاجر أو معاش (٤) .

وقد اورد الماوردي (٥) في كتابه الاحكام السلطانية فصلا خاصا للاقطاع وأصنافه من حيث ما يصيبها من الحقوق ، فجعلها في صنفين : اقطاع تمليك ، واطعاع استغلال ، وعرف الاقطاع المدني بقوله : « ان تكون لصاحبه ملكية تامة وقد تكون وراثية أيضا ، وعلى صاحبه دفع العشر . ويعطى من الارض الموات لاحتياها ، أو من أرض توفي صاحبها دون وارث » .

ولا بد هنا من التفريق بين كلمتي القطيعة والاقطاع ، فهما من نفس الاشتقاق ولكنهما يختلفان في الدلالة . فالقطيعة بمعناها الاساسي : أرض تقتطعها الدولة من املاكها وتمنحها دونما تحديد للمدة في غالب الاحيان الى رجل مسلم يمارس فيها عمليا جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل أيضا جميع اعباء المالك المسلم . أي ان له فيها حقوق المالك ، وليس له فيها أي حق من حقوق السيادة ، وهو ملزم باستثمار الارض أو احياء الارض الموات والا نزعته منه الارض ومنحت لمنفع آخر يحسن استثمارها (٦) .

وكان الهدف من الاقطاع في صدر الاسلام التعمير والاسكان (٧) ويرجع لعهد رسول الله (ص) فقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسنده الى ابن سيرين عن تميم الداري انه قال : « استقطعت رسول الله (ص) أرضا بالشام قبل ان تفتح فأعطانيها ، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه ، فأتيته فقلت : « ان رسول الله (ص) اعطاني أرضا من كذا الى كذا . فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لنا (٨) . وقال أبو يوسف (٩) أقطع الرسول أقواما ، وأقطع الخلفاء من بعده ، من رأوا في اقطاعه صلاحا لعمارة الارض ونفعا للمسلمين » .

ومن المعلوم ان عمر بن الخطاب رفض اقطاع السواد من أرض العراق واستطاب نفوس الفاتحين علاجا لما قد يطرأ على المجتمع الاسلامي من ازدياد السكان ، وتجنبنا لما قد يؤديه التقسيم الاقطاعي من بذور التفرقة ، فضلا عن الفوارق الطبقيّة ، ومما قاله بهذا الصدد أخاف ان قسمته ان تتفاسدوا بينكم في الحياة (١٠) . ويقصد بذلك الفتن والحروب . وكذلك رفض علي بن أبي طالب اقطاع الارض لاسباب اوضحها قائلا : « لولا ان يضرب بعضكم رقاب بعض لقسمت السواد بينكم » (١١) . واقطع عثمان ابن عفان أرض السواد اقطاعا اجارة لا اقطاعا تمليك (١٢) ولعل عثمان توسع أكثر من غيره في منح الاقطاعات .

ومنذ الايام الاولى لمعاوية بن ابي سفيان اقدم على اقطاع اناس من قريش وأشراف العرب من أرض الصوافي (١٣) . وبعد أن نفذت هذه الاراضي أخذ معاوية ومن جاء بعده

من الخلفاء الامويين يقطعون من أرض الخراج ، واستمر ذلك في الدور الاول للحكم العباسي ثم بدأ ظهور نظام اقطاعي جديد هو :

الاقطاع العسكري : وقد اعتبر مصدر دخل سنوي للامير او الجندي تبعا لرتبته العسكرية وبلائه في الحرب (١٤) . ولذلك اعتبرت الخدمة العسكرية الاساس الاولى في الحصول على الاقطاع (١٥) ويدخل في نطاقها أعمال حفظ الامن في الداخل والخارج (١٦) . ويحصل على الاقطاع من السلطان وديوان الجيش (١٧) . فمنذ عهد المعتصم الخليفة العباسي ٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٣٣-٨٤٢ م أخذ الاعتماد على الجند المرتزقة الذين كان يغلب عليهم العنصر التركي ، حتى كان عهد المستكفي ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ م الذي خلع بعد استيلاء معز الدولة البويهى بأربعين يوما (١٨) . فانفرد هذا بالسلطة وأقطع قواده وخواصه من الاتراك ضياع السلطان وضياع الفارين والمستترين (١٩) ، وغيرها . وهذه الاقطاعات لم تكن وراثية كما انها لا تدوم مدى الحياة ولا تعد تمليكا لصاحبها . لان الامير البويهى احتفظ بحق الغائها متى أراد (٢٠) ، وانما تمنح ليعوض واردها عن الراتب الذي لا تستطيع الخزينة المركزية البويهية المرتبكة دفعه ، فكان يصحب المنح اتفاق يفرض على صاحب الاقطاع دفع كمية من الثقود أو ما يعادلها من الفلة مع تسهيلات ، كأن يتم الدفع على اقساط (٢١) وكان عليه العناية بالقنوات المارة بأرضه ، وان تكون للإدارة المركزية سلطة داخل الاقطاع . ولكن الاقطاعيين من الجند لم يتقيدوا بهذه الشروط وتصرفوا حسب أهوائهم (٢٢) .

ومع انتقال السلطة الى السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ظل الاقطاع محافظا على طابعه السابق (٢٣) . ويبدو ان ما قام به البويهيون أدى الى خراب البلاد ، مما حدا بنظام الملك الفارسي وزير الب أرسلان ٤٥٧-٤٦٥ هـ / ١٠٦٥-١٠٧٢ م ان يعالج الامر كما تراهى له (٢٤) اذ جعل الاقطاع الحربي عاما في الدولة السلجوقية (٢٥) . ففرق البلاد على الاجناد اقطاعا كل قدر طاقته وجعل واردها لهم على ان يقدم المقطع عددا من الجنود للجيش السلطاني . كما حرص على عدم تركيز الاقطاع في جهة واحدة (٢٦) خيفة الاستقلال والثورة . وأشار المقرئ الى ذلك « . . وذلك ان مملكته اتسعت فرأى أن يسلم كل مقطع قرية أو أكثر على قدر طاقته » (٢٧) . وفي سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م أبقى نور الدين اولاد الجندي المتوفى على اقطاع أبيهم ، فان لم يكن له ولد جعله لبعض أهله للمحافظة على تعداد العسكريين . وصار ذلك مبدأ . فاذا توفي احد الجنود وخلف ولدا ذكرا أقر السلطان اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا تولى اقطاعه وواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب السلطان معه رجلا وصيا يتولى امره حتى يكبر . وصار الاجناد يقولون : « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها » (٢٨) ، ومن المعروف ان الدولة النورية كانت دولة عسكرية جهادية ضمن الدولة السلجوقية الكبرى ، أي أنها قامت على نظام اقطاعي حربي جانح الى الوراثة في بعض الاحيان ،

وشهد ابناء البيت الايوبي ذلك كله ، وتربوا فيه وعاشوا في مدارجه ثم تولى صلاح الدين شحنة دمشق . وتملك اقطاعات مناسبة كما ذكر ابو شامة (٢٩) . ومن المعروف أيضا أن الدولة الفاطمية عمرت أكثر من قرنين من الزمان ، وكانت القاهرة مركز هذه الدولة ممثلة بدور الحكومة ذات الانظمة المعقدة والتقاليد الطويلة المبنية على خبرة واسعة . وشهد ابناء البيت الايوبي ومارسوا تلك النظم وبخاصة صلاح الدين الذي تولى الوزارة فيها لأكثر من سنتين .

ولما انفرد صلاح الدين بالحكم عدل بعضا منها ، وفي هذا المعنى قال المقريزي : « ولما انقضت دولة الفاطميين ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغير لا كله » (٣٠) . ولذلك فإن اقامة صلاح الدين للنظام الاقطاعي لم يكن خروجاً عن النظام الاجتماعي القائم . غير ان اعتلاء العرش اعطى هذا التطور دفعة قوية الى الامام .

الاقطاع العسكري في العصر الايوبي :

الجيش الايوبي : تكونت النواة الاولى للجيش الايوبي بمصر من القوات التي اصطحبها اسد الدين شيركوه في حملته الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩ م وعدتها خمسمائة فارس من الاكراد والمماليك ، وهم المعروفون باسم « الاسدية » وستة الاف فارس من القبائل التركمانية بأمره عين الدولة الياروقي (٣١) فضلا عن عدد غير معروف من الجند (٣٢) .

ولما تقلد صلاح الدين الوزارة المصرية ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ / ٢٣ اذار ١١٦٩ م انسحب التركمان وعدد من الامراء الاتراك ورجعوا الى الشام (٣٣) بمن معهم من الفرسان لان اختيار صلاح الدين للوزارة من دونهم اساءهم وحز في نفوسهم ، فاضطر لاحاطة نفسه بطائفة من المماليك الخاصة بقيادة الامير ابي الهيجاء (٣٤) اطلق عليهم اسم « الصلاحية » (٣٥) . ومن الطبيعي ان يتخذ صلاح الدين من هاتين الطائفتين (الاسدية والصلاحية) نواة جيشه وان يخصصهم بانعامه لانهم عماد قوته ، فشرع باسترجاع اقطاع الجند الفاطميين واستطاع بفترة وجيزة ان يكون قوة كبيرة كادت تستنفذ موارد مصر .

في الحملة الاولى على الشام والاستيلاء على دمشق سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥-١١٧٦ م كان عدد فرسان صلاح الدين ستة الاف فارس بمن فيهم عسكر دمشق وخواصه من الصلاحية (٣٦) وكان عدد الجيش المصري لا يزيد على اربعة الاف مقاتل (٣٧) . وقبل المسير الى حطين كان تعداد جيش صلاح الدين اثني عشر ألف مقاتل . ألف من اجناد الحلقة . وأربعة آلاف من العساكر المصرية وألف من عساكر دمشق وألف من حلب

وخمسة الاف من الجزيرة والموصل وديار بكر . ولسد نفقات هذا الجيش لم يكن امام صلاح الدين خيار الا اتباع نظام الاقطاع العسكري الذي استوحاه من الانظمة السلجوقية . وادخل عليه بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف المستجدة في ايامه ، من حيث الادارة والنظم المالية وغيرها ، فتحددت الضرائب والرسوم ، ونظمت الواردات والنفقات وخصصت لها الدواوين والموظفين . ويقول الدكتور سهيل زكار : « وعندما يتفحص المرء دولة صلاح الدين في اواخر ايامه يجدها قد اصبحت اشبه بامبراطورية تضم عددا من الدول يربطها بالسلطان نظام الاقطاع العسكري . هذا النظام الذي تطور ايام السلاجقة وادخلت عليه تعديلات كبيرة وقد ورث صلاح الدين هذا النظام » (٢٨) وترجع أهمية عصر صلاح الدين لموضوعنا الى أنه العصر الذي تأسست فيه قواعد النظم الايوبية ، الادارية والمالية والاقطاعية .

أسس حيازة الاقطاع :

اتبع صلاح الدين نهج سيده نور الدين محمود بن زنكي الذي كانت له نظراته الخاصة الى الاقطاع . يقول زنكي : « اذا كانت البلاد لنا فأي حاجة بكم الى الاملاك؟ . فان الاقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان الاملاك تذهب معها . ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها » (٢٩) . وذكرت الاخبار ان العادل اخا صلاح الدين طلب ذات مرة ان يملكه اخوه صلاح الدين نواحي حلب ويكتب له بها كتابا كأنه بيع وشراء ، فامتنع صلاح الدين وقال : « انما تكون اقطاعا والبلاد لاهلها والمرابطين فيها ونحن خزنة المسلمين دعاء الدين » (٤٠) .

وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم املاك دولته بين ابنائه واهل بيته جعل التقسيم على أسس اقطاعية (٤١) ، وكذلك حصر الملك العادل ابو بكر اخو صلاح الدين الاقطاعات في اولاده ، وغدت البلاد المصرية كلها اقطاعات عسكرية . يذكر المقرئزي : « ومنذ كانت أيام صلاح الدين الى يومنا هذا (أيام المقرئزي ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » وبالقيااس فان اراضي الشام أيضا اصبحت كلها اقطاعات . ومن هذه الاقطاعات ما هو خاص بأفراد البيت الايوبي من أمراء وموظفين وكتاب ويقتصر على وحدة اقليمية ادارية (٤٢) ، كدمشق وحلب وحمص وحماة وبلبك والكرك والشوبك ، وأقاليم الجزيرة وديار بكر وغيرها ، وتسمى بالاقطاع الاداري ، ومنها ما اقترن بخدمات حربية يؤديها المقطع ، وبخضوعه للحكومة المركزية ، ولم تكن وراثية ومن النادر ان تعطى مدى الحياة وتسمى اقطاعات حربية (٤٣) . ومنها ما يعطى نظير تأدية خدمات تتعلق بالامن الخارجي والداخلي وأعمال القتال مثل التعبئة العامة والتنظيم والتأمين واستمالة المجاورين وتثبيط الاعداء وخداعهم قبل المسير للحرب ، وتسمى اقطاعات شخصية (٤٤) .

افاد صلاح الدين من كل قوة تخدم دولته فقرب الامراء الذين خضعوا له وساعدوه في فتوحاته فاقطعهم ، كما اقر كثيرا من الامراء النورية على ما بأيديهم وزادهم اقطاعات جديدة لانحيازهم له منذ ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ومساعدتهم في فتوحه زمن توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين (٤٥) . وقد سار خلفاء صلاح الدين على سنته في التوزيع الاقطاعي الحربي ولم يكن لديهم ما يحول دون منح الاقطاع لاميير مغامر اجنبي عن البلاد طرا على الدولة وطلب الدخول في خدمتها ما دام يؤدي الخدمة الحربية وهناك نسخة توقيع لاميير من هذا النوع ليس فيها ما يدل الا على أهمية الجهاد الحربي (٤٦) .

توزيع الاقطاعات :

بدأ صلاح الدين بتوزيع الاقطاعات مذ كان نائبا عن سيده نور الدين في الديار المصرية . فقد استقدم والده نجم الدين ايوب من دمشق (٤٧) فاقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة وذلك في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠ م وقدر دخلها بـ (٤٠٠) ألف دينار (٤٨) وفي الوقت نفسه اقطع اخاه شمس الدولة محمد تورانشاه ، الذي نشأ في كفالته وكنفه قوص واسوان وعيذاب (٤٩) . وتقع جنوب الصعيد ، ثم اضيفت اليه بوش ودخلها مع ملحقاتها ٧٠ ألف دينار والجيزة وسمنود ودخلها ٦٠ ألف دينار ، واعتمد عليه في فتوح اليمن والنوبة وليبيا وأطلق يده في اقطاع ما يفتح من البلاد لمن يشاء من امرائه وخواصه (٥٠) .

ولما حضر الى مصر ابن اخيه تقي الدين عمر بعساكره وعدتهم خمسمائة جندي في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١ م ، اقطعهم اقليم البحيرة لسد نفقاتهم (٥١) ، وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣ م تفرقت كلمة الامراء النوريين في الشام ، فاستولى صلاح الدين على دمشق ثم زحف على حمص فضمها اليه واقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شريكه ، بالإضافة الى اقطاع الرحبة الذي كان بيده (٥٢) . وبعد الاستيلاء على حمص اقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي (٥٣) ، وبقي عليها حتى وفاته فتسلمها من بعده الامير ناصر الدين منكورس ابن الامير خمارتكين صاحب حصن ابي قبيس ومتولى عسكره (٥٤) . وفي سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨ م اقطعت لتقي الدين عمر الذي جند العساكر وأعد العدة لمواجهة أي خطر صليبي ، ولما حضر الى الشام أخوه تورانشاه قادما من اليمن طلب من أخيه صلاح الدين في سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨ م أن يقطعه بعلبك ، فأمر صلاح الدين صاحبها ابن المقدم أن ينزل عنها فأبى فأرسل اليه قوة ارغمته على التنازل فاشتراط التعويض عنها فأجابته صلاح الدين وتسلم تورانشاه بعلبك (٥٥) وفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩ م كلف تورانشاه بالذهاب الى الاسكندرية بمهمة فحل مكانه عز الدين قروخشاه ابن اخ صلاح الدين . ولبت في اقطاعه حتى وفاته سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م فعين صلاح الدين ابنه الامجد بهرامشاه مكانه واستمر حتى وفاته ٦٢٧هـ / ١٢٣٠ م أي قرابة خمسين سنة (٥٦) . وفي عام ٥٨١هـ / ١١٨٥ م وبعد وفاة ناصر الدين محمد بن شريكه . اقر صلاح الدين ابنه على جميع اقطاعات ابيه .

وفي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م أقطع صلاح الدين دمشق لابنه الأفضل علي (٥٧) وفي نفس السنة استرد صلاح الدين حلب من أخيه العادل أبي بكر وعوضه عنها حران وميا فارقين ، ثم طلب منه التنازل عن كل أقطاعاته في الشام ما عدا الكرك والشوبك والبلقاء ، وعوضه عن ذلك باقطاعه البلاد الشرقية (٥٨) . (الجزيرة وأطراف دجلة) ، وأعطى ابنه الملك الظاهر غازي حلب بعد أن استردها من أخيه العادل . وعقب انتصاره في حطين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعث قوة بقيادة ابن أخيه حسام الدين محمد بن عمر ابن لاشين الى نابلس التي أقطعت له بعد طرد الصليبيين منها . وقد ترسم الملك العادل خطوات أخيه صلاح الدين حين انفرد بالامر في بلاد الشام ومصر فأقطع أولاده دون غيرهم ، فأعطى الأشرف بلاد ماريدين في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥ ، وخص ابنه الكامل بأعمال المقاطعات الشرقية التي كانت له أيام أخيه صلاح الدين وأقطع ابنه المعظم عيسى قلعة صرخد (٥٩) كما نهج أبناء العادل نهج أبيهم فأقطعوا الأقطاعات لماليكهم وخواصهم .

واعتمد صلاح الدين وخلفاؤه من السلاطين الأيوبيين على عدد من القادة العسكريين الذين أسهموا في توطيد الحكم الأيوبي في مصر والشام . وابلوا في قتال الفرنج الصليبيين بلاء حسنا فاستحقوا تقديرهم فأغدقوا عليهم الأموال وأقطعوهم الأرضين والضياح وحاولوا كسبهم الى جانبهم في كل الاوقات خشية ازدياد نفوذهم وثورتهم ، وبالتالي انفصالهم عن السلطة المركزية واستقلالهم . فعين صلاح الدين شمس الدين بن المقدم أميرا على دمشق ثم أقطعه بعين وكفر طاب وحسن رعبان كما أقطعه بعلبك ، ثم أخذها منه (٦٠) . وأقطع صلاح الدين الأمير حسام الدين أبا الهيجه السمين مقدم الأكراد الاسدية نصيبين بعد فتحها في سنة ٦٧٨هـ/١١٨٢م وكذلك أقطع الأمير بدر الدين دلدروم بن بهاء الدين ياروق ، تل باشر . والأمير ناصر الدين بن كورس صهيون وحسن برزية ، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية شيزر وأبا قبيس ، والأمير سيف الدين بن المشطوب مقدم الجيوش (علي بن احمد) نابلس والأمير عز الدين اسامة كوكب وعجلون ، والأمير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بغراس وكفر طاب وفاميه (٦١) وفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م منح صلاح الدين ديار بكر لمملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي (٦٢) . وقد ظل هؤلاء الأمراء على أقطاعاتهم يمارسون حقوقهم ويؤدون واجباتهم حتى وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م . ومنح العزيز عثمان بن صلاح الدين الأقطاعات الكثيرة لقادة الجند والأمراء الذين تفانوا في نصرته . فأقطع الأمير فارس الدين ميمون القصري «نابلس» في سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م وكانت له صيدا قبل ان يقطع نابلس (٦٣) . وأبقى الأفضل علي بن صلاح الدين أمراء الغرب (٦٤) على أقطاعاتهم نظرا لحاجته الى عونهم ضد أخيه العزيز عثمان .

وعمد أولاد الملك العادل الى توزيع ما بأيديهم من أقطاعات على أمرائهم للبقاء على رابطة الولاء والطاعة وحفظ الامن داخل الاقطاع وخارجه ، والنصرة في الحرب الاهلية

الدائرة بين افراد البيت الايوبي . وسمى كل واحد منهم لاحاطة نفسه بأكبر عدد ممكن من الامراء . وبعضهم وزع الاقطاعات في حياة ابيه ، ومنهم المعظم عيسى الذي وزع البلاد الشامية على ممالكه ، ولعل الدافع الى ذلك ما كان يراه من صراعات ومنازعات ، فخشى ان تذهب البلاد من يده ويفقد اقطاعاته . وعندما توجه الملك العادل لقتال الصليبيين بعد نقض عهودهم في سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م أنب ابنه وقال : بمن نقاتل ؟ اقطعت الشام ممالكك وتركت اولادنا؟ (٦٥) . ويبدو أن العادل قد أحس بتعاضد نفوذهم وكثرة اقطاعاتهم ، وتقلص اعداد بني جلدته الكرد وضعف قوتهم وتضاؤل شأنهم وهذا في نظره امر خطير يحسب حسابه . وربما أصبح لهؤلاء الممالك شأن آخر في مستقبل الايام . وهذا ما حصل فعلا في ايام الملك الصالح ايوب حيث تعاضد نفوذ الممالك وازدادت اعدادهم وتهيات لهم الظروف للوصول الى السلطنة . وفي عهده ايضا اقر امراء الغرب على اقطاعاتهم ففي سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م كتب كتابا للامير نجم الدين محمد بن حجي مدح فيه طاعته وحسن خدمته وأمره أن يبقى على عهده القديم مع زيادة المخصصات له ولمن معه ، وان يجمع من الجند كل ما يقدر عليه (٦٦) . كما كتب في سنة ٦٤٧/ ١٢٤٩م بخطه توقيعا باسم زين الدين بن علي وهو احد امراء الغرب ايضا ، وفيه « أنه يجري له من الاقطاع في الناحية الغربية والجنوبية من جبل لبنان ، وأن يجري على ما بيده من الاملاك المستمرة عليه وعلى والده من قبله » (٦٧) لوقوفهم الى جانبه في مواجهة الصليبيين . كما كتب الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن صلاح الدين سلطان دمشق منشورا لاحد امراء الغرب ، وهو جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي . ويعود تاريخه الى سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٣م (٦٨) .

ولم ينس صلاح الدين ما كان للزنكيين من فضل على أسرته منذ وصولهم الى الموصل ، وان حدث بعض الجفاء في اواخر ايام نور الدين . فان صلاح الدين لم يحمل حقدا ، ولم ينتقم الا من الذين حاولوا الايقاع به او كانوا حائلا بينه وبين تحقيق اهدافه في توحيد البلاد الاسلامية وجمع الكلمة ضد الغزاة الصليبيين . أما الذين أيّدوه وخضعوا له واخلصوا في ملاقة الصليبيين وحفظ الامن فقد أقطعهم الاقطاعات المناسبة . وعاملهم المعاملة اللائقة بهم ومن هؤلاء : الامير علم الدين سليمان بن جندر وهو من مشايخ الدولتين النورية ثم الايوبية بحلب ، أقطعه حصن دريساك بعد فتحها . وزاد عليها بلدة اعزاز في عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م (٦٩) وأقر الامير عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود صاحب سنجار (٧٠) على ما بيده حين خضع له سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ثم أقر أخاه عز الدين مسعود على الموصل . وأبقى معز الدين سنجرشاه بن غازي على الجزيرة (٧١) ، ولم يجد صلاح الدين غضاضة في أن يمنح الاقطاعات لبعض اعدائه ليأمن شرهم ويحقن دماء المسلمين . فهذا صاحب حصن شقيف أرنون (٧٢) ، يقدم على صلاح الدين مستسلما سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ويطلب مسكنا في دمشق لانه لا يستطيع أن يسكن الفرنج خشية الانتقام منه ، فيجيبه الى ذلك (٧٣) حماية لارواح

المسلمين . وأقطع أيضا فرسان الداوية (٧٤) والاستتارية (٧٥) بعض البلاد والقرى للسبب نفسه .

ادارة الاقطاع :

لان مركز توزيع الاقطاعات وترتيبها وتعبيرها (تحديد دخلها) ديوان الاقطاع « ديوان الجيش » سواء في ذلك الاجناد السلطانية أو الامراء وأجنادهم ويذكر ابن الفرات (٧٦) : « انه لا يعمل فيه الا ما يقطع للاجناد » ، وقام الديوان باثبات أسماء أصحاب الاقطاعات وجميع أفراد الجيش في سجلات خاصة تسمى جرائد « الجرائد الجيشية » (٧٧) . وأشهر موظفي هذا الديوان : الناظر ، ومتولي الديوان والماسح والخازن والكااتب والمستوفي وغيرهم .

وانصفت الدولة الايوبية بازدواج الادارة ، اذ وجد جهاز مركزي كبير في العاصمة الايوبية ، وأجهزة اقطاعية محلية صغيرة بمختلف الاقاليم (٧٨) . وكان أول أعمال الموظفين بهذا الديوان اثبات ارباب الاقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع أفراد الجيش السلطاني ، وجيوش الامراء وابتداء أمرتهم حسب السنين القمرية وعمن انتقل اليه الاقطاع ، وعدد الجنود الذين يجمعهم الاقطاع وأمام كل اسم دخل اقطاعه رمزا لا تصريحاً (٧٩) واثبات كل اقليم من الاقاليم واقطاعاته وما بها من ضياع ومزارع ومعالم وخصائص ، والدخل المالي للاقليم وقيمة المتحصل منه ويتم ذلك في جريدة خاصة . كما تثبت أسماء الجند الذين يتقاضون رواتبهم نقدا أو غلة لا اقطاعاً في صحيفة أخرى . وقام الديوان بالصرف على العمائر ذات الطابع الدفاعي ، كما اختص بالصرف على شؤون القوات البحرية والبرية وملحقاتها الدفاعية . واختص ديوان الاسطول بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن وجند وبحارة واسلحة ومؤون بالاضافة الى دور الصناعة .

وبهذا استطاعت الدولة الايوبية ترسيخ قواعد النظام الاقطاعي العسكري في البلاد ، وقلدتها من بعد الدولة المملوكية والدولة العثمانية .

وقد توخى صلاح الدين من تطبيق النظام الاقطاعي العسكري اقامة العدل ، وإزاحة العسف والجور ولذلك تشدد أبناء البيت الايوبي في الاشراف على المقطعين وسعوا الى الحد من ظلم الفلاحين ورفع العسف عنهم ، مما حمل هؤلاء الى التمسك بالارض (٨٠) . كما حددت الدولة الايجارات والرسوم التي يدفعها الفلاح لسيد الاقطاعي . وقد نصت التوقيعات السلطانية على المقطعين باتباع العدل والامر بالمعروف ، وعدم قبول الرشوة من الناس والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته (٨١) والتزام الفلاحين القيام بالاعمال المطلوبة منهم خير قيام ، من حراثة الارض وزراعتها وسقيها

وتعهد المزارعات وجمع الفلال والمحاصيل في مواسمها وحسن تخزينها ، وأن تسود المحبة والتفاهم مع ساداتهم . وامعانا في تعميم العدالة الاجتماعية وضمانا لحقوق المقطعين والمقطعين على حد سواء ، وهذه ميزة انفراد فيها النظام الاقطاعي العسكري في العصر الايوبي عن الانظمة التي سبقته .

ارتأى صلاح الدين اعادة توزيع الاقطاعات وتحديد مساحاتها ودخولها بما يتلاءم مع الاوضاع الاقتصادية المستجدة وحسب الظروف الانتاجية في بعض السنين نتيجة العوامل الجوية من خصب أو جفاف ، أو حسب الاوضاع السياسية والعسكرية .

ففي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ احتاج صلاح الدين الى اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، وقام بتلك العملية قياما وصفه القاضي الفاضل في متجدداته لشهر رجب من تلك السنة بقوله « استمر انتصاب السلطان صلاح الدين في هذه السنة في أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها (دخولها) والنقص منها والزيادة واثبات المحروم وزيادة المشكور (٨٢) وكانت هناك عدة عوامل موجبة لاعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، منها ما هو مالي واجتماعي ، كأن يتظلم الامراء والمقطعون من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع أو يتذمر الفلاحون من تعنت الامراء معهم وكثرة المغارم التي يخضعون لها (٨٣) . ومنها ما هو سياسي كاقطاع الموالين وحرمان المناوئين (٨٤) والاهم من كل ذلك الجانب الاقتصادي حيث يرى السلطان ضرورة اعادة النظر فيما طرأ على الارض من اصلاح أو عمارة أو اهمال لانقاص الخراج أو زيادته حسبما يقتضيه الوضع الذي آلت اليه ، كأن تجرى تحسينات على وسائل الري مما يستدعي زيادة الجباية أو أن تكون الارض نقصت كفايتها بسبب ضعف المقطعين وكبر سنهم وعجزهم عن القيام بما يتطلبه استثمارها من جهد وعناية أو بسبب قلة الايدي العاملة في أعقاب حرب أو وباء أو فتنة (٨٥) من أجل ذلك اتخذ الروك الصلاحي (٨٦) في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م .

ويظهر ان صلاح الدين رأى ضرورة تكرار عملية اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي . وهذا ما اشار اليه العماد الاصفهاني في حوادث سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قال : « وشرع السلطان في اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد » (٨٧) .

وعلى الرغم من الشدة التي اتبعها صلاح الدين وبعض أفراد البيت الايوبي لحماية الفلاحين وضمان حقوقهم ، فإن هؤلاء كانوا يعانون من الظلم الاجتماعي الذي يلحقهم من المقطعين لان النفس البشرية أماراة بالسوء ، والجشع المادي لا حدود له .

وكان الخارجون على القوانين الاقطاعية يلقون العقاب الذي يتناسب وحجم الظلم الذي الحقوه بغيرهم وربما أدى ذلك الى حرمانهم من اقطاعاتهم . ودليل ذلك ما قام به صلاح الدين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م فقد سحب اقطاعات جماعة من الاكراد لانهم

سببوا هزيمة الجيش الصلاحي في وقعة الرملة عند تل الصافية أمام جيش الصليبيين بقيادة أرناط صاحب الكرك (٨٨) . كما ان كشف مظالم الناس ورفع الحيف عنهم خير ما يتقرب به الى الله . وجرى ذلك على لسان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الرسالة التي وجهها الى صلاح الدين ليثنيه فيها عن عزمه على أداء فريضة الحج . قال : « يا مولانا ! مظالم الخلق كشفها اهم . ما يتقرب به الى الله تعالى . وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم ، من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقطعين على المقطعين ما لا ينادى وهجه في وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف يقطر دما لا أجر له . وللمسلمين ثغور ، تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات اقامة وجوه بحسبها فمن المستحق نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل (٨٩) . وبذل السلطان الكامل جهودا كبيرة لزيادة الانتاج ، وأشرف بنفسه على صيانة السدود ، وفرض الواجبات على أمرائه وعاقبهم في حال اهمالهم (٩٠) .

ولهذا جدت الدولة في حماية الفلاحين من أسيادهم الاقطاعيين ماديا ومعنويا ، كما حدثت من ثراء هؤلاء على حساب الآخرين (٩١) .

خصائص النظام الاقطاعي في العصر الايوبي :

من خصائص النظام الاقطاعي الايوبي انه يجيز انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر (٩٢) ، ووضعت لذلك أصول التسليم والاستلام . وأوضح ابن مماتي (٩٣) ذلك فيما أورده عن انتقال الاقطاع فقال : « اذ جرت العادة انه عند انتقال الاقطاع المزروع بقصب السكر من مقطع الى آخر اقتضى العرف الاقطاعي لاخلاء الارض ان يروى المقطع القديم قصبه ويخلي الارض في مواعيد معينة . أما اذا لم يروى المقطع القديم أرضه وسقاها المقطع الجديد كان المحصول له » . ويضيف قائلا : « وجرى العرف الاقطاعي ايضا انه عند انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر لا ينقل المقطع القديم معه شيئا من الاتبان بل يقيه للمقطع الجديد ضمنا لتفذية ماشيته » . ومن دواعي انتقال الاقطاعات :

— موت سلطان وولاية سلطان جديد فيعمد الى تقريب العناصر الموالية وابعاد غيرهم .

— سوء العلاقة بين السلطان والمقطع ، كأن يتأخر عن دفع الضرائب المقررة على الاقطاع مثلا .

— تقصير المقطع في الاهتمام باقطاعه أي اهمال الاقطاع من حيث الزراعة والري .

— تلوؤ بعض المقطعين عن اعداد القوات وارسالها في الوقت المناسب .

ومن المؤسف ان المصادر الميسرة لا تذكر شيئا عن تفاصيل ذلك بل تشير اليها اشارة عابرة ما عدا ما جاء بعد قيام الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعد وفاة الملك

الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بتوزيع الاقطاعات بمناشير وتوقيعات صادرة منه تمهيدا لما كان معرفا عنه من الطموح الى السلطنة (٩٤) .

ومن خصائص النظام الاقطاعي الايوبي أيضا توريث الاقطاعات . وقد أشرنا سابقا الى ان نور الدين أقر أبناء الجندي المتوفى على اقطاعات ابيهم (٩٥) وأكدت المصادر على أن صلاح الدين ترسم خطوات سيده وجعل بعض الاقطاعات وراثية (٩٦) . ففي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أبقي صلاح الدين لشير كوه بن ناصر الدين محمد بن شير كوه وهو طفل في الثانية عشرة اقطاع حمص والرحبة (٩٧) وذلك بعد وفاة أبيه . وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أعطى اقطاع شمس الدين بن المقدم لابنه عز الدين بعد أن خلف أباه في ولاية الحاج الشامي (٩٨) وكذلك أعطى صلاح الدين ثلثي اقطاع الامير سيف الدين علي ابن أحمد الشطوي لابنه عماد وأميرين معه (٩٩) .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، اذا مات احد ممالكه وكان له ولد أنعم باقطاع والده عليه وان لم يكن له ولد أنعم به على خشداشيته (١٠٠) . وأتبع ممالكه الترك من بعده هذه السنة (١٠١) .

الغاية من اتباع النظام الارثي تشجيع اصحاب الاقطاعات على البقاء على الجندية (١٠٢) والمقطع يحسن استغلال اقطاعه ويصونه ويحميه ويستبسل في قتال الاعداء أو الذين يريدون الاستيلاء على اقطاعه لانه يدافع عن حقوقه وأرزاقه ، كما يزيده اندفاعا وحماسا وتفانيا في خدمة اقطاعه وزيادة انتاجه ، ولا يجد مبررا لسحب اقطاعه منه طالما يؤدي ما يطلب منه على الوجه الاكمل .

ربما لجأ بعض السلاطين الى هذا النظام الارثي خشية ادعاء بعض الابناء او الحفدة ، انهم أحق بالملك من غيرهم ، فاذا ما ورثوا الاقطاعات سكتوا وكفوا عن المطالبة . فصلاح الدين كان يخشى من القاهرة محمد بن شير كوه وهو ابن عمه من أن يدعي أحقيته بالملك لما كان لابيه من أيااد بيضاء وفضل كبير على آل زنكي ، فقد وطد أركان الدولة النورية وقارع الصليبيين في مواقع كثيرة فعمد صلاح الدين الى اقطاعه حمص وتدمر والرحبة والسامية (١٠٣) وخلع عليه وكتب له منشورا بذلك ليأمن جانبه ويفض الطرف عن المطالبة بحقه في الملك .

ورغب البعض الاخر من السلاطين الايوبيين توريث الاقطاع خشية الفتنة والثورة اذا ما عزل الاقطاعي وتعين غيره ، وحدث مثل هذا في زمن الملك الكامل بن العادل الاول . لقد غضب عماد الدين احمد بن المشطوب لعزله وتمليك أخيه الفائز ابراهيم مكانه وذلك في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م (١٠٤) .

وبالإضافة الى الخاصتين السابقتين كانت الزيادة في رواتب الجند احدى خصائص النظام الاقطاعي الايوبي فقد كان معظم السلاطين الايوبيين يوزعون الاقطاعات على اجنادهم ويعطونهم رواتب زيادة على ذلك فكان فرسان الايوبيين من الاكراد والأتراك يعطون اقطاعات ويتلقون الرواتب والخلع (١٠٥) ربما كان ذلك تأليفاً للقلوب، وجمعاً للشينات وحثاً للمقاتلين على الصبر والثبات في ملاقات الأعداء . وفي رواية ابن ابي طي نقلها عنه أبو شامة (١٠٦) تأكيد على ما قدمنا . تقول الرواية : فأراه جرائد (١٠٧) الاجناد ومبالغ اقطاعاتهم وتعيين جامعتهم (١٠٨) ورواتب نفقاتهم (١٠٩) . ١

واجبات القطيعين : ألقت الدولة على عاتق المقطعين تبعات ومسؤوليات ، وألزمتهن تأديتها ويمكن اجمالها بالواجبات التالية :

أ - الواجبات المالية : كان الاقطاع الايوبي مورداً من موارد الدولة اذ جرت العادة ان يدفع المقطع جزءاً من دخله نقداً أو غلة بما يتناسب مع واردات الاقطاع، وكان يطلق على هذا الدخل «عبرة» وهي مقدار ما يقرضه في السنة (١١٠) وقدر متوسط خراج الفدان من (٢-٣) أردب (١١١) . ربما زاد أو نقص بحسب الظروف ، ويحصل كل أردب من (٢-٣) دراهم ويلزم الفلاحون الى جانب هذا المقرر بتأدية ضرائب للانفاق على الاقطاع أو بعض الوظائف (١١٢) ومن الرسوم : رسم الاوقاف ورسم الجرايف (ما ينفق على اصلاح الجسور) ورسم الاجران (١١٣) ورسم الحراسة ، ورسم الكيالة والمراعي والأتبان وغيرها . ولا يحق للمقطع أن يتصرف بكل إيرادات اقطاعاته من خراج الا اذا نص التوقيع على ذلك صراحة (١١٤) ومثال ذلك : في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٣م ناب بمصر عن صلاح الدين تقي الدين عمر فصارَت الاسكندرية ودمياط اقطاعاً له . ثم أضيفت اليه البحيرة والفيوم وبوش ، على أن يكون واردها خاصته (١١٥) لا يدفع منه شيئاً .

ب - الواجبات المدنية : يستخلص من الاشارات المبعثرة في المصادر ان المقطع كان مسؤولاً عن زراعة الارض وسقيتها واختيار الفلاحين الاكفاء واعدادهم والاشراف على المحاصيل وجنيها ، وصيانة الجسور ، وكري القنوات وجباية الخراج وحفظ الامن داخل الاقطاع ، وجمع الجند الاقطاعي ، وتخصيص جزء من اقطاعه لكل واحد منهم سواء أكان الاقطاع كبيراً أم صغيراً (١١٦) وكان يتولى ذلك بنفسه .

ج - الواجبات العسكرية : وهي أن يقدم المقطع عدداً من الجند كاملي العدة ، وبجاهزية قتالية عالية لمساعدة الجيش السلطاني زمن الحرب . بتعهد كل مقطع قبل التوقيع له بالاقطاع بأن يكون معه عند خروجه للحرب عدد معين من الفرسان (١١٧) واعتاد السلاطين الايوبيون حرمان المقطع من اقطاعه اذا أخل بهذا الشرط (١١٨) . ونضيف الى ما تقدم ما فعله صلاح الدين سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ، اذ قطع اقطاعات الامراء الهاربين أثناء محنة عكا (١١٩) .

كما أخذ العزيز عثمان بن صلاح الدين اقطاعات الامراء الذين اقامهم في الشام (١٢٠) لتخلفهم عن تقديم الجنود المقررين على اقطاعاتهم ، وكذلك سحب اقطاعات كل من الامراء الخيام وعلكان ، وحجير الدين وصهره عز الدين ، والفقيه كمال الكردي ، لانهم اخلوا بواجباتهم (١٢١) .

عيوب النظام الاقطاعي : ومن نقائص النظام الاقطاعي الايوبي ان المقطعين كانوا يذهبون الى اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحاصيل وتخزينها ، والتزم السلاطين بتلك المواعيد ، وكان لا بد ان يحسب لها حساب قبل الخروج للجهاد ، ونتج عن ذلك ان العناصر المناوئة للحكم الايوبي كانت تتحين مثل هذه الفرص للقيام بأعمال التآمر والشغب وتعكير صفو الامن ، وحتى الثورة . . ففي رمضان سنة ٥٦٩ هـ نيسان ١١٧٤ م تفرق الساسك الايوبية في جهات اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحصولات ولم يكن قد عاد منهم الى القاهرة الا العدد القليل (١٢٢) فانتهز انصار الفاطميين هذه الفرصة وحاكوا مؤامرتهم التي اشترك فيها الشاعر اليمني « عمارة » ضد صلاح الدين وكادت تنفذ لولا اكتشاف أمرهم .

ولما هاجم الاسطول الصقلي ميناء الاسكندرية من السنة نفسها ٥٦٩ هـ / تموز ١١٧٤ م جاءت الامدادات من الاجناد الذين كانوا باقطاعاتهم القريبة من الاسكندرية (١٢٣) وان دل هذا على شيء فانما يدل على نقص في بنية النظام الاقطاعي العسكري .

ويعزي ذلك الى بعثرة الاقطاع في بعض الاحيان . لقد حرصت الدولة الايوبية بالرغم من كافة الخدمات المدنية والحربية التي يؤديها المقطع ، وكنتيجة للعلاقات العائلية والحروب ، الا يكون الاقطاع كتلة اقليمية واحدة يستطيع المقطع ان يستقل بها او يزيد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وهذه من العادات الموروثة عن النظام السلجوقي . فقد كان المقطع يعطى اقطاعه في منطقتين متباعدتين . ومن امثلة ذلك : اقطاع الملك العادل في عهد اخيه صلاح الدين . كان جزء من هذا الاقطاع في الديار المصرية والجزء الاخر في البلاد الشامية والجزيرة وديار بكر وغيرها . كما كان اقطاع الامير شمس الدين العادلي مبعثرا بين مصر والشام (١٢٤) .

نماذج من التوقيعات الايوبية .

كان المقطعون يعطون توقيعا باقطاعاتهم يتضمن الخطة التي يلزم المقطع بالسير عليها وقد اختلفت هذه التوقيعات من حيث أسلوبها ، وبخاصة اقتراحاتها ، تمشيا مع القيمة الاعتبارية لصاحب الاقطاع وحسب درجته ومكانته ، ومن هذه التوقيعات ما يخص الامراء الكبار ، والامراء الصغار ، والعناصر الممتازة من العسكريين .

وتعد توقعات الامراء الكبار من الدرجة الاولى ، وهم كبار الامراء من البيت الابوي وتفتح عادة بعبارة « الحمد لله » ومن أمثلتها نسخة صادرة عن صلاح الدين لاخته العادل سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م باقطاعه أجزاء من الديار المصرية وبلاد الشام والجزيرة وديار بكر ، وما جاء فيه يجعله دستوراً اقطاعياً : « الحمد لله » الذي جعل أيامنا حسناً وأعلى لنا يداً ولساناً وأطاب محتدنا وأوراقاً وأغصاناً . ورفع لمجدنا لواءاً ولجدنا برهاناً وحقق فينا قوله : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً » .

وقد أحل صلاح الدين أخاه محله اللائق واعتبره وزيراً له ونائباً عنه . وعين له المناطق التي يحق له التصرف بها كيف يشاء « . . . وقد جعلنا له من البلاد ما هو مقتسم من الديار المصرية والشامية وبلاد الجزيرة وديار بكر ليكون له من كل منها حظ تفيض يده في أمواله ويركب في حشد من رجاله . فيتسلم ذلك بيد معظم قدار ولا يستكثر كثيراً ويحمل رفدها غيثاً وبحراً . . . » وأوصاه بالعدل في الرعية والاحسان اليهم « وكذلك فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع وليجاوز بهم درجة العدل الى احسان الصنائع » . ويشيد بمواقفه المشرفة في خدمة الدولة « فكم من موقف وقفه في خدمتنا فجعل وعره سهلاً وفاز فيه بارضائنا » . وأما عن بلائه في قتال الاعداء « ويكفي من ذلك ما ابلاه في لقاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجه وتمادى في لجاجه » . وكان يستفتيه ويستشيريه في أموره كلها لسداد رأيه : « وتلك وقائع استفتانا فيها برأيه الذي ينوب مناب الكمين في مضمره » .

ويتحدث عن تفشي الرشوة بين الناس « وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهو سحت (حرام) أمر رسول الله بنبذه ونهى عن أخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كالربا الذي قرنت للجنة بموكله وأكله » .

وأما عن القضاء والقضاة « . . . وأما القضاة الذين هم للشرعية أوتساد ولا مضاء الحق أجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق اليها النفاذ » .

وعن ادارة البلاد وتصريفها ورعاية شؤون سكانها « وذلك ان البلاد التي أضفناها اليك فيها مدن ذات أعمال واسعة ومعامل ذات حصانة مائنة وكلها يفتقر الى استخدام الفكر في تدبيره وتصريف الزمان في تعبيره . فول وجهك اليها غير وان في تكثير قليلها وترويض مغيلها وبث الامنة على اوساطها واهداء القبطة الى افئدة اهلها حتى تسمع باغباطها . وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ويتمثل بقوله تعالى « بلدة طيبة ورب غفور » .

ومن وصاياه أيضا حسن الجوار « . . واعلم انه قد يجاورك في بعضها جيران ذو بلاد وعساكر وأسرة ومنابر وأوائل للمجد وأواخر وما منهم الا من يتمسك منا بنود سليم وعهد قديم وله مساعدة تعرف له حقها والحق يعرفه الكريم فكن لهؤلاء جارا يودون جواره ويحمدون آثاره » ويدعو له بالتوفيق والنجاح في مهمته في ختام التوقيع « وأنت كوكبنا الذي نهتدي بمطلعه ومفتاحنا الذي نستفتح به المقلق ليمن موقعه والله يشرح بك صدرا ويسر لك أمرا ويشد أزرنا بك كما شد لموسى بأخيه أزره والسلام » (١٢٥).

وتفتتح توقيعات الامراء الصغار بلفظة ((أما بعد)) وتعد من الدرجة الثانية وتتضمن سبب تفضيل الامير واختياره لمهمة الامارة (١٢٦) .

« أما بعد ، فان لكل وسيلة جزءا وعلى كل نسبة مكانتها . وهي تتفاوت في اوقات وجوبها ومناقبيل ميزانها . وقد عجلنا لك من الاقطاع ما لا ترضى ان تكون شاكرا وجعلناه لك أولا وان كان لغيرك آخره وهو مثبت في هذا التوقيع بقلم الديوان الذي أقيم لغرض الجند كتابا ولمعرفة أرزاقهم حسابا وهو كذا وكذا . . فتناول هذا التحويل الذي خولته باليمين مستمسك به استمسك الضنين » .

« واعلم انه قد كثر الحواسد لما مددناه من صنعك وبسطناه من ذرعك فأشبع حلوهم بالسعي لاستحقاق المزيد وارق في درجات الصعود والزمهم صفحة الصعيد » . وعلى الصعيد العسكري . « . . ان الذي تأمرك به تعد نفسك للخدمة التي جعلت لها قرنا . وأنت بها أغنم وان تنتهي فيها الى الامد الاقصى دون الادنى . واذا استنفرت فانفر بثقال من الخيل وخفاف وكن مذخورا لواحدة يقال فيها « يا عزائم اغضبي ويا خيل النصر اركبي » . ويختتم بالدعاء بما هو أهله ((. . والله يشد بك أزرنا ويملا بك عيننا وصدرا ويجعل الفرج مقرونا برايك ورايتك حتى يقال : ومكروا مكرا ، وجردنا بيضا وسمرا والسلام ان شاء الله تعالى)) .

وتفتتح توقيعات العناصر الممتازة في الجيش بالحث على الشجاعة والاستبسال وتعد من الدرجة الثالثة أقل من المرتبتين السابقتين (١٢٧) .

وتبدأ : ((. . القلم والرمح قلمان كلاهما اسمر وكما تشابها في المنظر فكذلك تشابها في المخبر غير ان هذا يركب في عسكر من القول وهذا يحمل في عسكر . وقد نطق أحدهما بالثناء على أخيه فأحسن في نطقه وأقر بالفضيلة . ومن الانصاف ان يقر لذي الحق بحقه . ايها الامير فلان ايدك الله)) .

ويشير التوقيع الى اختيار الامير « . . وقد اخترناك على بصيرة واجزيناك من اعتنائنا على أكرم وتيرة ورفعنا درجتك فوق درجة المعلى لمن سبقك وانها لكبيرة . . ولم يكن هذا الاختيار الا بعد اختبار لا يحتاج معه شهادة » .

ويعدد المنشور جانباً من صفاته ((.. ومثلك من تباهى الرجال بمكانه وتخلّى له
فضلة عنانه ، ويتسع القول في وصفه اذا ضاق بغيره سعة ميدانه وما يقال الا انك
الرجل الذي تغذف الجانب المهم بعزمك وترمي برايك قبل رماء سهمك . وبك يحسر
دجى الحرب الذي اعوزه الصباح)) .

وفيه وصايا هامة من حيث التأهب للقتال ومعاملة الاهلين بالحسنى ومعرفة ما يضرهم وما ينفعهم » وكن في التأهب للخدمة كالسهم الموضوع في وتره وأصخ بسمك وبصرك الى ما تؤويه فلا ائتمار لمن لم يصخ بسمعه وبصره . وملاك ذلك ان تكثر من فرسان الفوار وحماة الدمار . ومن اهم الوصايا اليك ان تضيف الى غناهم غنى يبرزهم في زهرة من اللباس ويعينهم على اعداد القوة ليوم البأس ويقصر لديهم شقه الاسفار التي تذهب ينزقات الشمس (الاباء) فانظر هذه الوصية نظر من طال على صحنه بالكف الاوسع وعلمه ما يضر فيهم وما ينفع والله يمنحك من لدنه توفيقا والسلام » .

اثر نظام الاقطاع على الاقتصاد الايوبي :

الزراعة : ان نظام وراثه الاقطاع الذي وضعه الايوبيون اتى اكله في بلاد الشام اذ جعل اصحاب الاقطاعات يهتمون بأراضيهم و انتاجهم . وتشدد صلاح الدين بالاشراف على المظطمين فلم يمنحهم أي حقوق ادارية وسياسية على سكان الاراضي المقطعة واحتفظ بهذه السلطة للدولة المركزية (١٢٨) ، وحماية الفلاحين من عسف وجور سادتهم منعهم من ترك اراضيهم (١٢٩) ، فأولوها عنايتهم واصبح القمح المورد الرئيسي للزراعة الشامية كما انتشرت زراعة الفواكه والقصب والقطن ، الا أن بعض الزراعات ومنها القصب كانت حكرًا للدولة . وكثرة الحروب واندفاع الناس للدفاع عن بلادهم لم يقف حائلاً دون ممارسة اعمال الزراعة التي هي احدى دعائم القوات العسكرية فقد عمد بعض الحكام الايوبيين الى ارسال قسم من الجند للقيام بأعمال الزراعة بينما بقى القسم الاخر في مواجهة العدو ، واعتنوا بنظام الري ، وأراحوا الارض وجددوا خصوبتها باستعمال الاسمدة . واستخدموا الادوات المناسبة ، وغدت الكرك مثلاً ، في ايام الملك العظيم عيسى بن الملك العادل الاول تضاهي دمشق في خضرتها وكثرة بساتينها وتدفق مياهها ، بل وطيب هوائها (١٣٠) . الا أن الحروب الاهلية بين أبناء البيت الايوبي من جهة وسوء تصرف الجبابة من جهة ثانية كل ذلك كان في بعض السنوات يؤدي الى نقص الانتاج واعراض الفلاحين عن الزراعة .

المصادر والمراجع

- ١ - ابن الاثير : علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت. ٦٣٠ هـ ، ١٢٢٢ م) .
 - الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ .
 - التاريخ الباهر في الدولة الاتابية في الموصل . تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢ - الاصفهاني : محمد أبو عبدالله ، عماد الدين الكاتب (ت. ٥٩٧ هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح .
- ٣ - ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي الاتابي (ت ٧٨٤ هـ) .
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .
- ٤ - الحموي (ابن واصل) : جمال الدين محمد بن سالم (ت. ٦٩٧ هـ) .
 - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب تحقيق جمال الدين الشسيال .
 مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥٣ .
- ٥ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت. ٨٠٨ هـ) .
 - العبر وديوان المبتدا والخبر . منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ٦ - ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت. ٦٨١ هـ) .
 - وفيات الاعيان ١٣ جزءا القاهرة ١٢٩٩ هـ و ٦ اجزاء القاهرة ١٩٥٠ .
- ٧ - الخوارزمي : أبو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت. ٣٨٧)
 - مفاتيح العلوم ، صنفه سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م طبعة القاهرة ١٣٤١ هـ .
 ليدن ١٨٩٥ م . وطبعة بيروت ١٩٨٤ ص ٣٩ .
- ٨ - الدواداري : أبو بكر عبد الله ابن ابيك (ت ٧٣٦ هـ) .
 - كنز الدر وجامع الفرر . ج ١ تحقيق بيرندا رنكة القاهرة ١٤٠٢ هـ /
 ١٩٨٢ م .
- ٩ - دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشعب . يصدرها بالعربية .
 ابراهيم زكي خورشيد ورفاقه . المجلد الثاني - ماء اقطاع .

- ١٠- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) تحقيق
محمد احمد حلمي القاهرة ١٩٥٦، وطبعة القاهرة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م.
- ١١ - ابن شداد: بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ).
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية نشره جمال الدين
الشيال . القاهرة ١٩٦٤ .
- من النوادر السلطانية . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
اختار النصوص وقدم لها محمود درويش دمشق ١٩٧٩ .
- ١٢- ابن الشدياق : طنوس بن يوسف الشدياق الحداثي الماروني ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م
- أخبار الاعيان في جبل لبنان . بيروت ١٩٥٨ .
- ١٣- ابن عساكر : ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن
الحسين ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) .
- تاريخ مدينة دمشق (٣) مجلدات ١ ، ٢ ، ٣ . تحقيق المنجد ودهان
دمشق ١٩٥١ .
- تهذيب ابن عساكر ٧ اجزاء . مطبعة روضة الشام دمشق (١-٥)
١٣٣٢ هـ ومطبعة الترقى دمشق ج ٧٦٦، سنة ١٣٥٠ هـ .
- ١٤ - ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ) .
- تاريخ الدول والملوك (او تاريخ ابن الفرات) الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ تحقيق
قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ - ١٩٤٢ المجلد ٥٦٤
تحقيق الدكتور - حسن محمد الشماع ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧ م مطبعة
حداد بصر وغسان .
- ١٥- ابن قاضي شهبة : بدر الدين (ت ٨٥١هـ) .
- الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود
بن زنكي) تحقيق محمد زايد . دار الكتاب الجديد بيروت - لبنان
١٩٧١ م .
- ١٦- القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ) .
- صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية
وزارة الثقافة والارشاد القومي . المؤسسة المصرية للطباعة والنشر -
القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣ م .
- ١٧- ابن كثير : عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٢هـ).

– البداية والنهاية ، طبعة جديدة ومنقحة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م وطبعة بيروت ١٩٧٧ .

١٨ – الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ) .
– الاحكام السلطانية . طبعة القاهرة ١٩٠٩ . وطبعة أنجريونا ١٨٥٣ .

١٩ – المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) .
– التنبيه والاشراف بيروت ١٩٦٨ .

٢٠ – مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد . تجارب الامم وذيله ، القاهرة ١٩١٤ وطبعة ١٩٢١، ١٩٢٠ باعتناء امدروز ومرجليوث القاهرة واكسفورد .

٢١ – المقرئزي : تقي الدين احمد بن علي المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) .
– المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والانار . القاهرة ١٩١١، ١٩٢٤
وطبعة بولاق . اصدار دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٧-١٩٦٨ .
– السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر زيادة القاهرة ١٩٤٣ م .

٢٢ – ابن ممانى : الاسعد بن ممانى (ت ٦٠٦هـ) .
– قوانين الدواوين جمع وتحقيق الدكتور عزيز سوربال عطية . مطبعة مصر ١٩٤٣ .

٢٣ – النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) .
– نهاية الارب في فنون الادب / ٢٨ جزءا / مكتبة الاسد .

٢٤ – ابو يوسف : القاضي يعقوب بن ابراهيم (ت ١١٢هـ) .
– كتاب الخراج : ط٤ القاهرة ١٣٩٢هـ .

المراجع العربية :

١ – بيطار : امينة .
تاريخ العصر الايوبي . دار الطباعة الحديثة دمشق ١٤٠١هـ - ١٤٠٢هـ
١٩٨١-١٩٨٢ .

٢ – الحموي : محمد ياسين : دمشق في العصر الايوبي - المطبعة الهاشمية بدمشق .

٣ – دباغ : مصطفى مراد ، بلادنا فلسطين ، الخليل (ط ١) ١٩٧٢ ونابلس (ط ١) ١٩٧٠
دار الطليعة بيروت .

٤ - دلسو : برهان الدين ، التاريخ العربي الاسلامي . مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي . الفارابي ١٩٨٥ .

٥ - الدوري : عبد العزيز .

- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي بيروت ١٩٦٩ .

- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري مطبعة دار المعارف بغداد ١٩٤٨ م .

٦ - رافق عبد الكريم بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت دمشق ١٩٦٧ .

٧ - ربيع حسنين محمد النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤ .

٨ - رفاعي (انور) النظم الاسلامية . دار الفكر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

٩ - زكار سهيل : تاريخ العرب والاسلام منذ ما قبل البعث حتى سقوط بغداد ، دمشق - دار الفكر ١٩٧٥ .

١٠ - زيدان جرجي . تاريخ التمدن الاسلامي . مراجعة حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٦ ، وطبعة دار الحياة .

١١ - سبانو أحمد غسان ، مملكة حماة الايوبية . دار قتيبة دمشق ١٩٨٤ .

١٢ - سعد أحمد صادق . تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي طبعة اولى مطبعة بيروت ١٩٧٩ .

١٣ - سعداوي نظير حسان . التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين . مكتبة النهضة المصرية ١٤٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

١٤ - سيد الاهل عبد العزيز . ايام صلاح الدين طبعة اولى ١٩٦١ . المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر .

١٥ - طرخان ابراهيم علي ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

١٦ - عاشور سعيد عبد الفتاح . مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك بيروت ١٩٧٢ م .

١٧ - العريني (سيد الباز)

- المماليك بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

– الشرق الادنى في العصور الوسطى – الايبويون – دار النهضة بيروت
١٢٨٦هـ/١٩٦٧.

١٨ – غوانمة يوسف درويش : امارة الكرك الايوبية . الناشر بلدية الكرك ١٤٠٠ هـ/
١٩٨٠ م .

١٩ – كحالة (عمر رضا) العالم الاسلامي /جزءان/ المطبعة الهاشمية بدمشق . الطبعة
الثانية ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م .

٢٠ – ابن يحيى ، صالح : تاريخ بيروت – تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال
سليمان الصليبي . دار المشرق . المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان .

– الكتب الاجنبية المترجمة –

١ – آ . اشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى
ترجمة عبد الهادي عيلة . مراجعة أحمد غسان سبانو . مطبعة خالد بن
الوليد ١٩٨٥ . دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع .

٢ – هاملتون حب : التاريخ الاسلامي في العصور الوسطى . المركز العربي للكتاب
دمشق .

٣ – ستانلي لين بول : الدول الاسلامية – القسم الاول ترجمة محمد صبحي فرزات .
باشراف محمد احمد دهمان .

الحواشي :

- (١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٩ .
- (٢) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٥ ق٢ (الخليل) ص٧١ .
- (٣) الخراج مقدار من المال أو الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة . والمشر ضريبة على الاراضي مقدارها عشر غلتها مالا أو عينا .
- (٤) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني ص٤٧٦ (مادة اقطاع) .
- (٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، طبعة انجربونا ١٨٥٣ ، ص ٢٣٠ - ٢٤٢ .
- (٦) كلود كاهن ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، مجلد اول ص ١٧٧ .
- (٧) محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي (رسالة دكتوراه) جامعة دمشق ١٩٨٧ ص ١٤٥ .
- (٨) ابن عساكر ، تهذيب ج٢ ص ٣٥٠ .
- (٩) ابو يوسف : كتاب الخراج ، ج٢ ص ٦١-٦٢ .
- (١٠) انظر ، ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ص ١١ .
- (١١) المرجع نفسه ص ١١ .
- (١٢) الماوردي ، المصدر السابق ص ١٨٩ .
- (١٣) الصوافي هي الارض التي تولى عنها اصحابها ولحقوا بهرقل ، والتي أخذت من الاعداء بعد أن هربوا أو قتلوا أو أجلوا عنها . فعادت ملكيتها لبيت مال المسلمين ، وللحاكم ان يتصرف بها عن طريق الهبة أو الاقطاع أو الاستغلال . انظر محمد زيود ، المرجع السابق ص ١٣٣ .
- (١٤) السيد الباز العريني ، المالك ، ص ١٧١ .
- (١٥) ابراهيم طرخان المرجع السابق ص ١٩٤ .
- (١٦) المرجع نفسه ص ١٩٧ .
- (١٧) العريني ، المرجع السابق ص ١٧١ .
- (١٨) عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامي ، ج٢ ص ٧٠ .
- (١٩) برهان الدين دلو ، التاريخ العربي الاسلامي ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .
- (٢٠) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج٢ ص ٩٧ وج٣ ص ١٦٥ . وانظر ايضا عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص ٣١ .
- (٢١) المصدر نفسه ج٢ ص ٩٨ ، ٩٩ .
- (٢٢) المصدر نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
- (٢٣) دلو ، المرجع السابق ص ٢٢٢ .
- (٢٤) طرخان ، المرجع السابق ص ٢٢-٢١ .
- (٢٥) الباز العريني ، المالك ص ١٦٥ ، وانظر ايضا جرجي زبدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج١ ص ١٧٤ .
- (٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج١ ص ٢٢٤ . وانظر العريني ، المالك ص ١٦٦ .
- (٢٧) المقرئ الخط ، ج١ ص ١٥٣-١٥٤ .
- (٢٨) الباز العريني ، المالك ص ١٦٦ .

- (٢٩) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٨٤ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .
- (٣٠) المقرئ ، المصدر السابق ، المواعظ والأعتبار ، ج ١ ص ٨٦ .
- (٣١) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤٩ .
- (٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٢٢٢-٢٢٣ .
- (٣٣) البارز العريني ، الأيوبيون ص ١٥٥ .
- (٣٤) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٢٧ .
- (٣٥) الدار في كتب التاريخ ، الناصرية ، أو طائفة الممالك الخواص ، أو جند الحلقة .
- (٣٦) أبو شامة كتاب الروضتين . ج ١ ص ٢١٧ .
- (٣٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٢٨٤ .
- (٣٨) سهيل زكار ، تاريخ العرب والإسلام ص ٣٩٣ .
- (٣٩) عبد العزيز سيد الأهل ، أيام صلاح الدين ، ص ٤٥ .
- (٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٥-٤٦ .
- (٤١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦ .
- (٤٢) العريني ، الأيوبيون ص ١٩٢ .
- (٤٣) المرجع نفسه ص ١٩٢ .
- (٤٤) العريني ، الممالك ص ١٦٧ .
- (٤٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٠ .
- (٤٦) المرجع نفسه ص ٤٣ .
- (٤٧) ابن قاضي شعبة ، الكواكب الدرية ص ١٨٧ .
- (٤٨) المقرئ ، السلوك ج ١ ص ٩١ حاشية ٣ . ويذكر ابن قاضي شعبة : وكانت عبرتها في هذه السنة ٥٦٥ هـ مائتي ألف دينار وست وستين ألف دينار ، انظر الكوكب الدرية ص ١٨٧ .
- (٤٩) أبو شامة ، المصدر السابق ج ١ ص ١٨٤ . ابن خلدون العبر ، ج ٥ ص ٢٩٣ .
- (٥٠) طرخان ، المرجع السابق ص ٣٧ .
- (٥١) المقرئ ، السلوك ج ١ ص ٤٨ .
- (٥٢) أبو شامة ، المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٠ .
- (٥٣) ابن خلدون ، ج ٥ ص ٢٩٠ . وانظر أحمد غسان سبانو مملكة حماة الأيوبية ص ٤٤ .
- (٥٤) سبانو ص ٤٧ .
- (٥٥) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٩٣ . ستانلي لين بول . الدول الإسلامية القسم الأول أيوبية بعلبك رقم ٤٥ ص ١٦٤ .
- (٥٦) ستانلي لين بول ، ص ١٦٤ .
- (٥٧) المقرئ ، السلوك ج ٢ ص ٨٢ . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .
- (٥٨) طرخان ، المرجع السابق ص ٣٨ . وانظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٤٠ .
- (٥٩) المقرئ ، المصدر السابق ج ١ ص ١٥٢ .
- (٦٠) انظر ما سبق .
- (٦١) طرخان المرجع السابق ص ٤٠ .
- (٦٢) العريني ، الأيوبيون ص ١٦٣ .
- (٦٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٧ . المقرئ السلوك ج ١ ص ١٢١ .
- طرخان ، المرجع السابق ص ٤٣ . اقطمه صيدا الملك غازي بن صلاح الدين لانه كان أحد أمرائه ثم أضيفت له نابلس .

- (٦٤) امراء الغرب هم امراء جبل لبنان. وكان يطلق عليهم (بنو الغرب) وهم عرب قحطانية تملكوا في غرب لبنان ما عرف باسم الشف . واملأهم منذ جدهم بحتر الاول مثبتة بمحاضر شرعية وأول منشور كتب لهم كان لبحتر بن علي عام ٤٥٢ هـ / ١٠٤٧ م قبل طهير الدين طفتكين أتابك دمشق من السلاجقة . ثم منشور من قبل مجير الدين آبق من سلالة طفتكين بدمشق سنة ١١٤٧ م الى الأمير بحتر بان يبقي على رسومه المستمرة في الضياع المنسوبة اليه في الغرب باسم ولده ويتناول الاموال الاميرية ويصرفها على الخدمة . (انظر صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٩٠-٩٤ ، طنوس ابن الشدياق : اخبار الاعيان في امراء لبنان ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .
- ومن هؤلاء الامراء ايضا جمال الدين حجي، حصل على منشور من نور الدين مع ثمانية نفر اخرين سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م، وزير الدين علي. انظر طرخان ، النظم الانقطاعية ص ٤٦٥ حاشية ١٣.
- (٦٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٤٤.
- (٦٦) المرجع نفسه ص ٤٥ .
- (٦٧) المرجع نفسه ص ٤٥ .
- (٦٨) انظر المرجع نفسه ص ٣٩٣ من اجل نص المنشور . وانظر ايضا صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٥٥-٥٦ من اجل اسماء القرى الواردة في المنشور .
- (٦٩) بن شداد ذيل ص ٢٧٢، ٢٨٣ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠-٣١ وما بعد .
- (٧٠) طرخان ، المرجع السابق ص ٤١ .
- (٧١) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ص ٩٦-١٢٠ .
- (٧٢) شقيف ارنون قلعة حصينة في كهف الجبل قرب بانياس (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٢ حاشية ٣) .
- (٧٣) ابو المحاسن ، المصدر السابق ج ٦ ص ٤٢-٤٣ .
- (٧٤) الداوية : سموا كذلك بالهيكلين مقامهم كان بجانب موقع هيكل سليمان بالقدس وقد شكل هذه الجماعة هيو دي باين سنة ١١١٩ م واطلقوا عليهم « الرفقاء جنود المسيح الفقراء » في عهد بلدوين الثاني ، وكان غرضها دينيا يستهدف تأمين الحجاج في طريقهم بين يافا والقدس ثم تحولت هذه الجماعة الى هيئة عسكرية لمحاربة المسلمين (غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١١٢ حاشية ٤٧) .
- (٧٥) الاستبصارية : أو فرسان القديس يوحنا (فرسان المشفى) تأسست من فرسان الصليبيين في عام ١٠٩٩ م بعد الاستيلاء على بيت المقدس وكان هدفها الاول علاج المرضى وايواء الحجاج المسيحيين ومساعدتهم ولكنهم تحولوا فيما بعد الى اغراض عسكرية وندروا انفسهم لمحاربة المسلمين (انظر غوانمة . امارة الكرك الايوبية ص ١١٣ حاشية ٤٨) .
- (٧٦) ابن الفرات ، تاريخ ، المجلد ٤ ج ١ ص ١٩٦٧ ص ١٤٧ .
- (٧٧) ربيع ، المرجع السابق ص ٦٣، ٦٢ .
- (٧٨) المرجع نفسه ص ٨٠ .
- (٧٩) النوبري ، نهاية الارب ، ج ٨ ص ٢٠٠-٢٠٣ .
- (٨٠) ربيع ، النظم المالية ص ٣٣٤ . أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٤٣ .
- (٨١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١١ ص ٣٤، ٣٣ ، و ج ١٢ ص ١٤٤-١٤٨ وانظر فيما بعد اساليب التوقيعات الانقطاعية .
- (٨٢) المقرئزي : الواظف والاعتبار ج ١ ص ٨٦، ٨٧ ، ربيع المرجع السابق ص ٢٨ - المحروم غير المزروع - المشكور المزروع .
- (٨٣) انظر : طرخان ، النظم الانقطاعية ص ٩٥ .
- (٨٤) المرجع نفسه ص ٩٥ .

- (٨٥) المرجع نفسه ص ٩٥ .
- (٨٦) الروك : كلمة قبطية اصلها (روش) ومعناها الجبل ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الارض بالحيل وهي بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقي «روح» ومعناها تقسيم الارض وقد اصطلح على استعمالها في مصطلح الادارة المالية في مصر والشام في العصور الوسطى ، للدلالة على عملية قياس الارض وجصرها في سجلات وتسجيرها وتقويم المقارات وغيرها من الاملاك الثابتة ومتعلقاتها كل ثلاثين سنة وهي غير ثابتة . واقتضى هذا التوفيق بين السنة الخراجية (القمرية) والميلادية (الشمسية) وذلك بتقديم السنة القمرية سنة كاملة ، ويرجع ذلك لوجود تفاوت بين السنتين القمرية والشمسية ، والقمرية هي المتمدة في جباية الخراج والروك الصلاحي نسبة الى صلاح الدين يوسف بن ايوب (انظر طرخان النظم الاقطاعية ص ٩٦) .
- (٨٧) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢ . ربيع ، النظم المالية ص ٢٩ .
- (٨٨) المقرئزي ، السلوك ج ١ ص ٦٤-٦٥ .
- (٨٩) محمد ياسين الحموي ، دم حق في العصر الايوبي ، ص ٤٧-٤٨ .
- (٩٠) اشتور ، المرجع السابق ص ٣٠٣ .
- (٩١) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ١٢٨ .
- (٩٢) حسنين محمد ربيع ، المرجع السابق ص ٣٧ .
- (٩٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٤ .
- (٩٤) ابن العميد ، اخبار الايوبيين ص ١٥٩ . النويري نهاية الارب ج ٢ ص ٣٠٢ .
- (٩٥) انظر ما سبق .
- (٩٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٨ . اشتور المرجع السابق ص ٢٠٢ .
- (٩٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٢١٠-٢١١ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٧٣ .
- (٩٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥٢ .
- (٩٩) المصدر نفسه ص ٤١٠-٤١١ .
- (١٠٠) الخشداشية هي الرابطة التي تربط السلطان الحاكم ومماليكه . انظر عبد الكريم رافق . بلاد الشام ومصر ط ١ (١٦٧ ص ١٥ وهي هنا تعني ممالك الامير الاقطاعي .
- (١٠١) ابن ابيك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الفروج ج ٧ ص ٣٧١ حوادث سنة ٦٤٧ هـ .
- (١٠٢) البار العريني ، الممالك ص ١٦٦ .
- (١٠٣) طرخان ، المرجع السابق ص ٣٩ .
- (١٠٤) المقرئزي ، السلوك ج ١ ص ١٩٦ .
- (١٠٥) اشتور ، المرجع السابق ص ٣٠١ .
- (١٠٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٦ .
- (١٠٧) الجريدة : سجل اسماء الجند . وهذا المقصود هنا ، وللجريدة معان كثيرة منها : جماعة الخيل (الفرسان) والصحيفة . وورقة النخيل . (انظر محمد خير ابو حرب المعجم المدرسي ١٩٨٥ مادة جرد) .
- (١٠٨) الجامكية : كلمة تركية ، وهي الرواتب المحجوزة لشهر او اكثر وهي الرواتب عامة . وفي القلقشندي ان نفقة ممالك السلطان كانت عبارة عن جامكيات وعلوفة وكسوة وغير ذلك .
- (١٠٩) هاملتون جب ، التاريخ الاسلامي ص ١١٣ حاشية ١٦ ورواتب النفقات يقصد بها المصاريف والنفقات .
- (١١٠) ربيع ، المرجع السابق ص ٣٣ .
- (١١١) طرخان ، المرجع السابق ص ١٩٩ . والاردب ميكال ضخم بمصر يساوي ٢٤ صاعا او هو ست ديبات والاردب اليوم ١٩٨ ليتر (انظر شلور العقود للمقرئزي ١٩٦٧ ص ١٠٨) .

- (١١٢) الباز المريني، الايوبون ص ١٩٢ .
- (١١٣) الاجران : البيادر : المواضع التي يدرس فيها البر ونحوه وتجنيف الثمار .
- (١١٤) الباز المريني ، المرجع السابق ص ١٥٧ .
- (١١٥) المقرئزي ، السلوك ج ١ ص ٨٢-٩١ .
- (١١٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١ ص ٣٣-٣٤ .
- (١١٧) ربيع ، المرجع السابق ص ٣٥ .
- (١١٨) انظر ما سبق .
- (١١٩) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ص ٣٥١-٣٥٣ .
- (١٢٠) المصدر نفسه ص ٤٥٣ .
- (١٢١) المقرئزي ، السلوك ج ١ ص ١١٩ .
- (١٢٢) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢١ ، وانظر أيضا : ربيع ، المرجع السابق ص ٣٩ المريني ، الايوبون ص ١٥٧ .
- (١٢٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٢٧٢ .
- (١٢٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ص ٣٧٢ . القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٤٦ .
- (١٢٥) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٤٤-١٤٨ ربيع ، نظم ص ١٢٥-١٢٦ . ملاحق رقم ٣ .
- (١٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٤٨-١٥٠ ربيع ، المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٩ ملاحق رقم ٤ .
- (١٢٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٢ ص ١٥٠-١٥٢ . طرخان ، المرجع السابق ص ٢٩١-٢٩٢d٢٩٢d٢٩٢ .
- (١٢٨) احمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، ط ١ ص ٤٥٧ .
- (١٢٩) اشتور ، المرجع السابق ص ٢٣٢ .
- (١٣٠) غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١٨١ .

* * *